

أم العواجز

سبحان الذى وسع ملكه الخلق كله ، ولا اعتراض على حكمه . فلا أبتغى هنا إلا أن أروى قصة إبراهيم أبو خليل وهو يهبط درجات الحياة : كورق الشجر فى الخريف ، قد ترفعها الرياح قليلا ، ولكنها — حتى فى ارتفاعها — تنطق بالهبوط المكتوب عليها رويداً رويداً إلى أن تتوسد الثرى وندوسها الأقدام . شهادته وهو ينزل آخر درجات السلم ، وقد علمت فيما بعد أنه ييم وتلطم فى صغره (ولا أدري أهو حضرى ، أم ريبى ، واعتقادی أنه من أولاد البلد) . واستفتح شقاء بالخدمة فى المنازل ، ثم إذا به بائع ترمس على عربة يد صفت عليها قلل قناوية ، زينت حلوقها بالورد والريحان . وقد سمعت أنه فتح بعد ذلك دكاناً صغيراً للعطارة ، ثم ارتد بائعاً متجولاً كل بضاعته دبابيس وإبر موافد الغاز ومشابك الغسيل يقفز بها من ترام إلى ترام . وفى حياته فترات متقطعة لم يصلنى خبرها ، وأغلب ظنى أنه ذاق لتشرده أحياناً لسعة الأسفلت فى قوه ميدان .

وكان قبل أن أعرفه بقليل يحتل فى الميدان ركن الرصيف المثلث المواجه لدكان التركى بائع الحلوة الطحينية ، يجلس وامامه « مشنة » فيها فجل وجرجير وكراث ، لا يزيد نداؤه عن قوله « الفجل ورور ، الجرجير العال » . لا ينطق وجهه بأثر ما يدل على هذه العهود التى تقلب فيها ، وهذه المهن التى ظلت تركله واحدة بعد أخرى . فهؤلاء الناس يتقبلون الحياة كما هى ، لكل نهار قسمته ، وكل يوم ينقضى يموت — مثلهم — بلا تركة ، هم يدخلون الحلبة وقد مات إحساسهم : — أمن الجهل مات أم من البلادة أم من القناعة والرضا — فلا تطرف أعينهم للكلمات المنهالة عليهم . ولكن يجدر بك ألا تسارع إلى الحكم عليه فقد تكون ظالماً له ؛ فانك لو عرفتته مثلى لوجدته رجلاً سليم الطوية أنيساً مهذب اللفظ كريماً . ورغم ما يبذله من جهد ليتصيد لقمته ويقيم

أوده فان قلبه لا يعرف الحسد ولا الضغينة . تنبئك عيناه اللتان خيمت عليهما السحابات إن في قلبه ميلا دفيناً إلى الفكاهة والدعابة ، وتأسرك نظرتة لأن الابتسامة فيها تتملص من حجاب أثر حجاب ، فكأنك تشهد تصويراً سينمائياً بطيئاً لابتسامة العين كيف تكون . وكان إذا رفع وجهه إلى ظلل عينيه بكفه ، فيخيل إلى أن العالم قد تضاعل إلى هذا الإطار الذى انفردنا فيه نحن الاثنين ، وأن حديثه مسارة خافتة فى خلوة .

يحتل أبو خليل مكانه المعهود قبل الظهر بقليل ، فاذا جاء العصر ، حين تفرغ أوتكاد « مشنة » النهار ، قام وسار متشاقلاً كعادته ، وأخذ يجول فى الميدان ويمر على كثيرين من أصحاب الدكاكين ، ويتريث عند هذا أو عند ذاك ، فيسألونه عن حاله ، ويسألهم عن حالهم ، وبعضهم يتندر معه ، ويضاحكه . وكان له صديق يشتري منه رغيفاً يحشوه بالطعمية ويدسه تحت إبطه ، وصديق آخر يشتري منه أرخص السجائر ويضعها فى علبة من الصفيح فوق حزامه بين جسده وثوبه ، ثم يترك أصدقاءه إلى رصيف المسجد ليتنسم الهواء — كما يقول — وليتعرف على الوارد فى ذلك اليوم . فاذا بلى جديد ما يراه عاد إلى مكانه وجلس وبسمل وأكل غذاءه ، حتى إذا فرغ منه قبل يده ظهراً وبطناً وحمد الله ، وهىأ لجسده جلسة مسترخية وأشعل سيجارة يدخلها بلذة كبيرة ، فهو صاحب مزاج . . . ثم يختفى عن الميدان ولا يعود إلا قبيل الغروب ومعه « مشنة » المساء . أما عشائوه فرغيف وقطعة من الحلاوة الطحينية يشتريها من جاره البحرى ثم يذوب من الميدان حين يخلو من المارة . ولا أدرى أين ينام . ولكنى سمعت أنه يشارك امرأة عجوزاً مقعدة هتاء فى حصيرة فى حجرة صغيرة تحت حنية سلم فى آخر رفاقى فى نهاية الدحيرة . هل تزوج ؟ هل له أولاد ؟ هل له أقارب ؟ لست أدرى . إننى أحب أبا خليل فلا أريد أن أتحدث هنا عما سمعته عن علاقته العجيبة (ولابراهيم قلب شفيق) بتلك العجوز المقعدة المصنعة ، ولا أريد أيضاً أن أتحدث عن خيانتة لها بين الحين والحين إذا ما فتح الله عليه ، فى تل قريب من السيدة ، فلا أعلم أن بنفسى تعاف شيئاً كما تعاف التحدث عن هذا الحى وأهله .

وذات يوم مشرق صاف ، أقبل أبو خليل على مكانه المعهود من الرصيف

فوجد الركن الآخر قد احتلته امرأة حولها ثلاثة صبية ، وعلى صدرها رضيع كأنما يشرب من صدرها خمراً فهو مغمض العينين نشوان لا يفيق ، والطامة الكبرى أنها جلست أمام « مشنة » مملوءة بالفجل والجرجير والكراث . ولما بدأت تنادى « زرع العصارى يا فجل ، الحزمة بلملم » ارتفع لها صوت مجلجل فى الميدان . يا فتاح يا علم ! وجلس أبو خليل لحظة وهو صامت يرقبها ، ثم تنهد وانصرف عنها ، وأخذ ينادى هو أيضاً على بضاعته ، وحاول أن يرفع صوته فوق صوتها فلم يستطع وأخذته نوبة من السعال . أراد أن يكلمها ويسألها من أين أتت ولماذا وقع اختيارها على هذا المكان بعينه ، ولكنها لم تأبه له ، ولم ترد عليه . تبعد ، وتفرق صبيانها بيد ، وتنقل بثنى ركبتيها طفلها الخمور من ثدى إلى ثدى ، ثم تتحرك كالقعدة نحو قلبها فيتعري فخذهما قليلا . ولكن هيهات ! إن قلب أبى خليل ثائر لا يهش لها . لعلها إغارة مفاجئة ستنتشع غمتها فى الصباح . . .

ولكنه وجدها فى الصباح التالى أيضاً كالرصد أمامه ، وأخذ يتلفت إلى وجهها وإلى المارة وإلى جيرانه ، ويقوم ويقعد ، ويترك « مشنته » ويذهب يروى لأصدقائه هذا الخبر الداهم ، ثم يعود فإذا صوتها يجلجل فى الميدان كأنما تنادى على معشرها فى يوم الحشر العصيب .

واشتري أبو خليل فى تلك الأيام بدل العشر خمس سجاجير

انتهت حيلته وانصرف همه إلى مراقبة هذه المرأة الجسور التى هجمت عليه تنافسه فى رزقه . والغريب أنه بدأ يعجب بها ، وحاول أن يبتسم لها مرة ، ومضت الأيام فإذا « مشنته » تقترب قليلا من « مشنة » بدر ، كأنما يريد أن يقول لها « لنشترك معاً » ولكنه لم يقلها . وأحسست بدر أن المقام قد استفرجها وإن إبراهيم صفر اليدين من السلاح ، بل أدركت أنها أصبحت ذات سلطان عليه ، فتزلت ذات يوم وردت عليه ، ثم لم يمض طويل وقت حتى كانت إذا قامت لبعض حاجتها فى الخرابة المجاورة أوصته أن يجعل باله إلى أولادها . وطال غياب أبى خليل عن مشنته ، وتسكعه عند أصدقائه ووقوفه على باب المسجد هب النسيم أو لم يهب ، فى قلبه أمل خفى . لعل بدر هى رزقه الذى أطرته به السماء ذات يوم على غير ميعاد . وليس أحب إليه من أن يسلم قياده لهذه المرأة الجريئة ويعيش معها فى كنفها ، إنها امرأة - كالرجل - يحق

له أن يباهى بها الناس أجمعين . سيتودد إليها ، وسيضاحكها ليضحك معها ، وسيتتظر حتى تقضم هي أولاً من الرغيف لقمة أولقمتين ثم تعطيه إياه فيأكل من حيث رفعت قمها ، هي التي ستوقظه في الصباح ، وتغطيه بالليل ، وإذا تخأبت وغاب عند أصدقائه من أصحاب الدكاكين بجثت عنه وجرتة إلى حيث يجب أن يكون . هكذا كانت تحدّثه نفسه . ولكن هل يفتأها ؟ إنه لا يحسر على ذلك ؛ فهو لا يعلم عنها شيئاً ، وليس في الميدان من يعرفها .

وفي تلك الأيام اشترى أبو خليل غدائه من الطعمية نسيئة .

ولما اقتربت مشنته من مشنتها حتى تلاصقتا حدثته بدر ذات مساء — دون أن يسألها — عن حياتها ، فاذا بها أيضاً من المشاكل التي كتب على إبراهيم أن تكون نصيب روحه وعينيه في هذه الدنيا . قالت له إنها حرة وغير طليقة ، متزوجة وتعيش كالأرمل ، فلها زوج غائب لا تدرى مكانه ، هو صعيدي يحمل على ظهره ربطة كبيرة من الفانلات والجوارب والقوط يدور بها على المقاهي ، يلازمها زمناً ثم يختفي فجأة ، وتسمع أنه سافر مرة إلى وجه بحري ومرة إلى وجه قبلي ، ولا تدرى أهو يهرب منها أم من ثأر قديم يخشاه أم له هوثأر يحرق وراءه ليسلم له شرفه . وقد مضى على اختفائه آخر مرة قرابة سنة ونصف سنة وهي لا تعلم أحى هو أم ميت ، والغالب أنه حي يرزق ، وإلا لجاءها نبأ وفاته لأن على ذراعه وشماً باسمه واسم بلده . أم تراهم سلخوا جلده ؟ أقاتل هو في السجن أم مقتول لا يدرى أين قبره ؟ اختفى وترك لها أولادها ، فخرجت تسعى إلى رزقها ، وقادها حسن حظها إلى جوار رجل طيب مثل إبراهيم أبي خليل .

ومرت أيام أخرى فاذا الألفة بينهما تزيد ، وأخذت بدر تحنو على إبراهيم ، وتشترى له طعامه ولا تطالبه بثمانه ، لأنها خلطت مشنته بمشنتها ، ونقوده بتقودها ، والكل في جيبيها . وظنت أن حياتها قد انتهت إلى تلك الصورة ورضيت نفسها ذات يوم (ولا تسأل أعن اختيار كان أم عن اضطرار ، فليس من اليسير أن تجد بدل الغائب صعيدياً آخر . . .) وقالت لـ إبراهيم : « لقد اتسخ ثوبك فتعال معي الليلة أغسله لك » .

وكان إبراهيم جالساً أمامها وظهره إلى الطريق ، وأخذ يحدثها وهو لا يشعر بمرور الناس ولا الزمن . . . ترى هل ما يراه حقيقة أم من وهم عينيه ؟ خيل إليه أن شفيتها تحتلجان فجأة ، ولعلت أسنانها وتألقت عيناها ، لا السواد وحده

بل البياض أيضاً ، وسمرت نظراتها إلى ما وراءه ، فالتفت فوجد صعيديا قد حنت ظهره ربطة كبيرة يسعى إليهما بخطى وثيدة . نظرة واحدة جعلته يدرك أن القادم رجل خشن لا يرحم ولا يستسيغ الدعابة . . . وحط الرجل حملة وجلس القرفصاء وكان كل ما قاله لبدر :

— كيف الحال ؟

فأجابته :

— الأشياء رضا والحمد لله على سلامتك .

وأطرق الفتى الصعيدي قليلا ، ثم أدار رأسه ووجه نظرة واحدة إلى أبي خليل فاطمأن قلبه والتفت إلى زوجه يقول :

— لكل شئ أوان ، لكن الصبر طيب .

وقام برهومة ينفذ التراب من على مقعدته ، وغاب عن بصرهما وابتلعتة رحمة الميدان ومرت أيام كثيرة لم أره فيها ، قيل إنه أصيب بالحمى ، وقيل بل هي العجوز المقعدة قد علمت بخبر بدر فدست في طعامه شيئا انتظرت حتى بذلته لها شابة من جاراتها فلحقه منه أذى كبير .

عبت عن الميدان وأهله زمنا طويلا . ولما عدت إليه ومرت على الرصيف

— المواجه للتركى بائع الخلاوة الطحينية لم أجد بدرا أم العيال ولا إبراهيم . . .

ثم حدث ذات يوم أن بكرت في الخروج لبعض أعمالى ودخلت الميدان قبل أن تفتح المتاجر ، وأخذت أسنانى تصطك من البرد إذ كنا في شهر وصفه بين الشهور القبطية : قلب الشتاء طوبة ، الحفاة يدسون أصابعهم المتورمة تحت الابط ، ويسيرون كأنما تطأ أقدامهم العارية شوكا . . . يبعث في الميدان

بين الحين والحين سعال أجش غليظ ، ثم يتلوه صمت ، ثم يسمع بوضوح — وهو همس — نتف من حديث بين أصوات لا يزال يثقلها النعاس وبلغم

الصدر ، ورغم ماتقع عليه عين السائر من الغادين والرائحين فلا مفر له من الشعور بأنه في مدينة مهجورة لا تعرف هؤلاء المارة ولا يعرفونها . وإذا بي

نخاة أكاد أصطدم بإبراهيم أبي خليل : ثيابه رثة ممزقة ، ورأسه عار ، وأقدامه حافية ، يسير كالترنح نظرته العتمة هي هي ، وابتسامته لم تتغير . خرج

في تلك الساعة المبكرة ليؤدى وظيفته التى يجب أن تبدأ وتنتهى قبل أن تنتشر

الحركة فى الميدان . أصبحت له مهنة جديدة : هى البخور . وهو عمل لا يتطلب إلا كفة ميزان قديمة ، وسلسلة غليظة ، وبعض نشارة الخشب وشيئاً من فتات اللبان والشيخ يضعها وكسر الخبز فى مخللة تعلق بالكتف وربما ألقى فيها أيضاً الملايم والعشرينات الخردة . أدركت لحظة رأيته أن هذه هى المهنة التى ولد لها أبو خليل ، وكان يجب أن أتوقع أنه سينتهى إليها ؛ لأنها توافق طبعه ، فهى مهنة سهلة ينعم صاحبها بلذة التسكع ويتسلى بالتطواف على أشكال وأنواع من الناس . ثم إن دخلها ثابت — فهو من فييل الاشتراكات ! — وليس لها سعر معلوم ، ولا تخضع لرقابة ولا تبور فيها بضاعة إذا كسدت . يعترف صاحبها أنه لا يرقى إلى مرتبة الباعة السريحة الذين يكسبون رزقهم بعرق جبينهم ، ولكنك لا تستطيع أن تتهمه بالشحاذة ، فها هو ذا أمامك خارج إلى عمله وعدة الشغل فى يده . وإذا كانت هذه المهنة هى هكذا عند عامة أصحابها إلا أنها شئ آخر فى نظر أبى خليل . فهو قد مل التجارة بأنواعها لأنها شد وجذب وخداع وحيطة ، ولكن البخور لا يرتكز إلا على العواطف وحدها ، وهو يؤمن أن تحيته التى يستفتح بها صاحب الدكان صباحه مجلبة للبركة لأنها صادرة من قلب صاف عطوف محب للخير . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع الناس . لازمته بعد ذلك أياماً كثيرة ، ورأيت بعينى الأسطى حسن الحلاق لا يرضى — فهو ليس بالأبله — أن يدفع إليه المليم إلا بعد أن يمر به داخل الدكان ليخبر له المقعد والمرآة والطشت المقطوعة حافته بقدر رقبة الزبون . ورأيت صاحب المطعم الوطنى لا تقنع يده إلا على طعمية واحدة بقيت من أمس أو أول من أمس . أما التركى فيعطيه المليم ويصرفه مجنق وضجر . ولما ألفه أكثر أصحاب المتاجر أصبحوا يعطونه المليم سواء تصاعد البخور أم لم يتصاعد ، فأهمل أبو خليل تجارتده وأصبحت مجمرته منطفئة معظم الصباح ، أو إذ الاح فيها بصيص من النار لم ينبعث منها إلا دخان أسود كريه الرائحة تنأذى منه الأنوف . . .

وذات يوم مشرق صاف ، أحسست وأنا أسير إلى جانب إبراهيم أن الميدان قد سكن فجأة كما يسكن الجو قبل الأعاصير ، ثم أقبل من شارع مراسينا رجل له عينان براقتان كعينى الصقر ، ثوبه قد ضم سبعين رقعة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، له خطوة مجدة نشيطة لاتعرف الإعياء . قامته منتصبه ولسانه

لا ينقطع عن تلاوة الأدعية والأوراد ، وفي يده مجمرة ينبعث منها دخان أبيض جميل ذكى الرائحة ، بل إن سلسلتها صفراء لامعة . . . يا فتاح ياعليم ! صد أصحاب الدكاكين هذا القادم صدًا عنيفًا أول يوم ، فهم زبائن أبي خليل وليس من المعقول أن يشتروا في الصباح الواحد بركتين قد تفسد إحداهما الأخرى . . . ولكنه عاد في اليوم الثاني والثالث والرابع ، ثم تناول أول مليم . . . ثم عاد ومر على كل دكان من جديد سواء رق له قلب صاحبه أم لم يرق . . . وقد سحرني دأب هذا الرجل وقوة إرادته ، فتركت صديقي الأعمش وسرت وراء هذا القادم العجيب ، فإذا به يجرجرني من السيدة زينب ، إلى ميدان باب الخلق ، إلى القلعة إلى السيدة عائشة ، ويشق القرافة إلى السيدة نفيسة ثم إلى السيوفية والخيمية وبوابة المتولى ، ثم إذا به يأوى إلى مقهى صغير في سيدنا الحسين ، ويخلع عمامته الخضراء ، ويجلس ليدخن الجوزة ، وجلست إلى جواره وأنا ألث وأتصبب عرقًا . . . رأيته يسير ساعة من أجل الوصول إلى زبون واحد . . . ولم ألق في حياتي من يسعى إلى رزقه بهمة هذا الرجل وصبره وجلده .

وترك برهومة مجمرته وأصبح يكتفى بالمرور وحده على أصحاب المتاجر عليهم يذكرونه ويعطونه المعلوم . وتضائل دخله ، واضطر إلى الوقوف وسط الميدان تارة ، وعلى باب الست تارة أخرى ، فإذا ببعض الزائرين يدسون في يده ماتجود به نفوسهم ، إذ حسبه شحاذًا يتعفف عن السؤال . والعجيب أن أبا خليل ربي له بعد قليل طائفة من الزبائن تخلص له ، وتبحث عنه ، حتى تعطيه مافيه القسمة . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع الناس . . .

وذاث يوم مشرق صاف وبرهومة في مكانه المهود إذ دوت بالقرب منه صرخة عالية طاقت بالميدان كله « حى ! قيوم ! » وتجمع الناس حول المجدوب الذى صرعه الوجد ، ووقفت فوق رأسه إحدى لابسات اللبس الأسود والمداس الأصفر وعقد الكهرمان الغليظ واندفعت تزغرد . . . واستفاق المصروع ولكن فيه مطبق لا ينبس ببنت شفة ، وعيناه المصابتان بالحول تحمقان في وجوه المجتمعين حوله وقد اغرورقت فيهما الدموع . ثم رفع كفين ملائمتها خواتم زرق وخضر وحمى ومسح وجهه وتهاى لجمع النقود . . .

ولما سمع أبو خليل في الموعد عينه تلك الصرخة ذاتها في اليوم الثاني والثالث ترك مكانه والتفت إلى المسجد وهو يتمم :

« يا أم العواجز ! مدد ! »

كان قد مل الحياة ، وركبه الاعياء والضعف ، وزادت سحبات عينيه ، وانحنى ظهره . . . واتجه بخطوات متثاقلة إلى مقام أم العواجز ، حوله صفوف من الشحاذين قد جلسوا القرفصاء — حتى تحالم هكذا خلقوا — وأسندوا ظهورهم إلى جداره ، يحيطون به إحاطة القمل بقبة الفقير . هيات أن يجد له مكاناً بالدرجة الأولى بجوار الباب ، فتركه ودار حول المسجد حتى وصل إلى الميضأة وجلس على بابها . فالتفت إليه من يسبقه في الأقدمية ووجه إليه نظرة نكراء : مفيش يكره الشحاذ إلا الشحاذ مثله . . .

وهناك تركت أبا خليل ونفضت منه يدى ، فقد أصبح من أهل دنيا

غير دنيانا . في دنيا لا تخرج لها ، بل لها باب واحد للدخول قد كتب فوقه :

« باب الوداع » .

بحي مفى